

من آليات قراءة التراث

جابر عصفور أنموذجاً

أ.د. الساسي بن محمد ضيفاوي (*)



الملخص

منذ مطلع القرن العشرين وبعد حركات الاستقلال في الدول العربيّة وعلى إثر البعثات التي قام بها عددٌ من المفكرين إلى الدول الأوروبية وما شاهده هناك من أسباب التقدّم والتمدّن انبرت ثلّةٌ من الأقلام تطرح سؤالاً جوهرياً مسّ جملة من التخصصات هو التالي: كيف ينهض العرب، ولماذا تقدّم غيرهم وبقوا هم على حالهم؟ وقد تفرّع هذا السؤال إلى عدّة أسئلة على غرار ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنّ العيب يكمن في تركيبة العقل العربيّ وطرائق تفكيره ومقارباته، ورأى بعضهم الآخر أنّ المأزق يتمثّل في تقليدنا وتبعيتنا وعقدنا، واعتقد شقّ ثالث أنّ الأمر يتمثّل في نظرتنا الدونيّة لأنفسنا وجلدنا لذواتنا واجترارنا لماضٍ سَكَنَّا فقرأناه قراءة تراثيّة لم تفض بنا إلى فهم ما نريده من التراث، وما يريده التراثُ منّا؟

الكلمات المفتاحية: التراث، التمدن، التقليد، التنوير، النقد.

(*) أستاذ الحضارة / كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة القيروان / تونس.

تمهيد

أمام هذا السؤال انقسم العالم العربي والإسلامي إلى قسمين، شق ينادي بضرورة العودة إلى التراث والنسج على منوال السلف بما أنهم حققوا أوج الازدهار وتركوا حضارة تلهج بها الألسن في المشرق والمغرب، وشق آخر نادى بضرورة التحديث ومواكبة العصر والتفريق بين ما هو ثابت في التراث وما هو متغير وفق تغير العصور ومتطلبات الحياة الجديدة، ذلك أن «دورة التاريخ متجددة دائما في تحولاتها لا تكف عن الاندفاع العام صوب الأمام» على حد تعبير جابر عصفور المفكر الذي قاوم الفكر الدغمائي المتعصب نابذا الانغلاق داعيا إلى الانفتاح وحرية الفكر في ما كتبه من مؤلفات على غرار كتابه «دفتر التنوير» ١٩٩٤م، و«آفاق العصر» ١٩٩٧م، و«ضد التعصب» ٢٠٠١م، و«نحو ثقافة مغايرة» ٢٠٠٨م، وغيرها من المؤلفات التي أثار فيها الباحث إشكالية التراث وطريقة التعامل معه وكيف يمكن الاستفادة منه خدمة لقضايا العصر وتحقيقا للرقى والتقدم.

لقد استطاع جابر عصفور في هذه البحوث وغيرها أن يبني موقفا نقديا من التراث وأن يرسم منهجا واضحا يجعلنا نعيد قراءة تراثنا مُحتمكين إلى العقل بعيدا عن التمجيد أو التهجين، مُنطّلعين خلال كل ذلك إلى استشرافِ نظرةٍ مُستقبليّةٍ تُمكننا من البناءِ الحقِّ على قواعد سليمةٍ تضمّنُ التفاعلَ الإيجابيَّ مع مقتضياتِ الواقعِ العربيّ الإسلاميِّ وتأخذُ بأسبابِ الحداثةِ وبلورةِ الهويةِ العربيّةِ وتنقيتها من الهويّاتِ المتضاربةِ، ولا

يتحقّق ذلك وفق رأي الباحث والمفكر جابر عصفور ما لم يتخلّص العرب من تقديس الماضي والمبالغة في التعصّب للقديم.

ونظرا إلى قيمة الرجل العلميّ وما قدّمه من إضافاتٍ منهجيّةٍ تتعلّق بكيفيّة قراءة التراث فقد تخيّرنا أن نعالج الموضوع الآتي: من آليات قراءة التراث، جابر عصفور أنموذجا، وذلك لأهميّة المنهج في العلوم المعاصرة ولأنّ مآزق التراث هو مآزق منهجيّ تحديدا، وسنعمل على الوقوف على النقاط الآتية على وفق ما استخلصناه من كتابات جابر عصفور المتعلقة بقراءة التراث، أولا: ما التراث عند جابر عصفور؟ ثانيا: لماذا نقرأه؟

ثالثا: كيف نقرأه؟

١ - ما التراث؟

إنّ التراث هو ما يسكننا ويشكلنا وجداننا ومعرفيّنا، فهو هذا الكلّ من الماضي يُوجد فينا فيجعل منه جزءا من حاضرنا الذي يتبعنا بغية الوصول إلى المستقبل الذي ينشده المرء ولا يحقّقه، وهو لا يقتصر على الأنا بل يتعداه إلى الآخر في مفهومه الواسع سواء أكان الغرب أم المغاير أم تراث الأمم الأخرى، ولا يختلف تعريف الناقد المفكر جابر عصفور عمّا ذهبنا إليه، إذ يؤكد في قوله عن التراث إنّ «كلّ ما ورثناه تاريخيا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشريّة التي نحن امتداد طبيعّي لها، فالتراث ميراث إنسانيّ بجهد بشريّ، خلّفه الذين أورثونا إيّاه»^(١).

(١) هوامش على دفتر التنوير: جابر عصفور، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤، ص ٢٢.

وفي ضوء هذا المفهوم نستخلص أنّ التُّراث ملك إنسانيّ وقاسمٌ مشتركٌ بين البشريّة وجِبَ أن نُوظفه لصالحنا دون أن نَمسَحَ ذواتنا ونُفَرِّطَ في خصوصيّاتنا وهويّتنا، ومن هنا تكون الإفادة منه «دون أن نخسر وجودنا، ونَتَقَبَّله بعضًا من وعينا التاريخيِّ، ونقاربه مُقارِبَة العقلِ النّقديِّ الذي يبدأ من أسئلته هو دون أن يَسْتَعيرَ أسئلة غيره، ويُجاوِزُ نفسه بنفسه عندما يُسَقِطُ وعيه الضدّيِّ على مَكنوناتها ذاتها»^(٢).

وبناءً على ذلك فإنّ التُّراث على وفق جابر عصفور لا يَخْتَلِفُ عن الإرث والميراث وهو هذا الكلّ الذي خَلَفَهُ أسلافنا من إنتاج وجهد بَشَرِيٍّ نتصرّف فيه تصرّفًا مُطلقًا مثلما يتصرّف الوارث في نصيبه من الإرث وحصّته من الميراث، فله كلّ الحقّ في التفاعل مع هذا الإرث بوصفه خليفة الله في هذا الكون، وهو الوارث الوحيد لهذا الملك، وبهذا التصرّف نزع جابر عصفور هالة القداسة عن التُّراث وعده مجهودًا بشريًّا وتراكمًا معرفيًّا ومشروعًا حضاريًّا، ففرّق بذلك بين الاعتزاز بالتُّراث والتأريخ له، ونقده وغربلته بُغية تنقيته من كلّ شوائب التخلف والتجبر والإقصاء، يقول جابر عصفور في هذا السياق «إنّه عمل إنسانيّ، خالص، أو حالة للإنسان بطبعه من حيث هو إنسان، عالم، صانع، فاعل»^(٣).

معنى ذلك أنّ عصفور يفصل بين التُّراث

(٢) قراءة التراث النقدي: جابر عصفور، ط ١، مؤسسة عييال للدراسات والنشر، قبرص، ١٩٩١، ص ١٨.
(٣) المصدّر نفسه، ص ٤٤.

ومعرفتنا به، وبين الوقوف على سطحه بمنطقي النقل وليس العقل، وروح التقليد وليس التركيب والنقد «ويقرن شروط إنتاج هذه المعرفة الجديدة بأدوات إنتاجها وعلاقتها في عصرها من ناحية، وقدرة هذه الأدوات في الحفاظ على استقلال موضوعها المقروء داخل علاقاته الخاصّة في عصره الخاصّ من ناحية ثانية»^(٤).

إنّ فهم مفهوم التُّراث لا يمكن أن يكون موضوعيًّا إلاّ إذا انطلق الباحث من قراءة نقدية واعية تدرس ثلاثة أبعاد رئيسة موصولة أوّلاً بحضور التُّراث، وثانياً بعلاقتنا به، وثالثاً بمعانقة الحدود القصوى لعملية القراءة وسبر أغوار هويّة هذا التُّراث. وقد عبّر جابر عصفور عن البُعد الأوّل بحضور التُّراث الآنّي في وعي القارئ بوصفه حضوراً موصولاً بالمشعور والمتسرّب في ذهننا وماضينا ومواقفنا، بناءً على أنّ هذا التُّراث تشكّل في محضن تاريخيّ وحضاريّ ونفسيّ معيّن، وفي عصر تميّز بأدوات معرفيّة وثقافيّة مخصوصة، وتبعاً لذلك فإنّ الشبكة العلائقية الموصولة بقراءة التُّراث تنهض على قارئٍ ومقروءٍ وأنساق معرفيّة تصل بينهما، وقراءة ناتجة عن هذه العلائق.

أمّا البُعد الثاني فقد عبّر عنه بهذه الجدليّة بين الذاتيِّ والموضوعيِّ بقوله «إذا كان القارئ ينتمي إلى عصره المقابل، فإنّ العلاقة بينهما علاقة انفصال لا محالة، لكن هذا الانفصال سرعان ما يتحوّل إلى اتّصال على مستوى البُعد القيمي الذي ينطقه النصّ المقروء»^(٥). ويرى أنّ

(٤) المصدّر نفسه، ص ٣٦.

(٥) المصدّر نفسه، ص ٧.

البعد الثالث يتجسّد في القراءة الجيّدة والمنهج الواعي الناقد لهذا التراث، وامتلاك نظرة فاحصة ودقيقة للقراءة لاسيّما حين يتعلّق بالتراث النقديّ بهدف الوصول إلى قراءة منهجيّة تُسهم في تطوير وعينا بواقعنا وتراثنا في آن، وتتضمّن هذه القراءة عند جابر عصفور «معنى الضمّ والنطق والإبلاغ معاً»^(٦).

وقد ميّز جابر عصفور بين عدّة قراءات منها ما يُمكن أن يكوّن قراءة علميّة موضوعيّة نقدية يحلّل فيها المسؤولية الأولى للقارئ، ومنها ما يمكن أن يكوّن قراءة ذاتيّة وإيديولوجية، تصدر الأولى عن الأيديولوجية الشخصية للقارئ، والثانية عن الأيديولوجية العامّة، وقد تكون هذه القراءة للتراث جزئية موصولة بنسق معرّفٍ معيّن، قراءة منعزلة عن المحضن الذي أنتج هذا الموروث، وقد تكون هذه القراءة تقليديّة حيث تقع في أسر القراءات السابقة، مما يدلّ على أنّ جابر عصفور لا يؤمن بوجود قراءة محايدة أو بريئة للتراث ذلك «لأنّنا عندما نقرأ التراث ننطلق من مواقف فكريّة محدّدة لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدّد في إطاره المرجعيّ بالمواقف الفكريّة التي ننطلق منها»^(٧).

وبناءً على ذلك يؤسس جابر عصفور مدرسة نقدية حديثة تنويرية تنهض على بُعدين في الأقلّ، البعد الأوّل يتمثّل في المخزون الإيبستيميّ قديمه وحديثه، والبعد الثاني يتمثّل في تبنّي منهج علميّ نقديّ قوامه «أنّ كلّ نصّ من نصوص التراث النقديّ لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من

(٦) المصدّر نفسه، ص ١٢.

(٧) المصدّر نفسه، ص ٥.

النصوص، فالتراث النقديّ وحدة سياقية واحدة، داخل وحدة سياقية أوسع هي التراث كلّ»^(٨). ونظرًا إلى استحالة الإحاطة بمضامين التراث وأهدافه ومناهجه وموضوعه إحاطة وافية وموضوعيّة والوقوف على مقارباته وفق ما ذهب إليه جابر عصفور في بعض آثاره، فإنّنا اخترنا أن نبحت في أهميّة القراءة الفاحصة والعميقة التي تسبر أغوار النصّ وتقدره في محضنه وسياقاته وآليات إنتاجه، باعتبار أنّ النقد أسّ العملية القرائيّة و«المحكّ وراء كلّ حركة صوب الماضي»^(٩)، بيد أنّ جابر عصفور يحذّرنا من مغالطة التراث ومأزقه واعتباره مقدّسًا لا يخضع للنقد والمساءلة والمراجعة، ويرى أنّ التراث أحيانًا يسكننا ويسجننا و«يخادعنا عن أنفسنا، أو نخادع أنفسنا عنه، نقبل عليه بأوهام سرعان ما تجعلنا عبيدا له، أو تجعل منه حضورًا يقبض بأطرافه على رقابنا، فيعرقل خطّونا، ويقودنا إلى حيث يشاء في أحدِ أزمانه، بدلَ أن نقوده نحنُ إلى ما نشاء من أزماننا»^(١٠).

إنّ غاية جابر عصفور من الرجوع إلى التراث والتسلّح بالمناهج القرائيّة الحديثة والمعاصرة مثل المقارنيّة والبنويّة والتفكيكيّة ونحوها من المقاربات المنهجية هي الانفتاح على مجالات التساؤل العلميّ والقلق البحثيّ من أجل فكّ

(٨) المصدّر نفسه، ص ٦.

يمكن أن ننظر في هذا المجال كيف نقد جابر عصفور التراث العربي الإسلاميّ قديمه وحديثه في ضوء مقاربات بحثية وعينات درّسها وحلّلها وفكّكها على غرار كتابات أمين الخوليّ وطه حسين وطه إبراهيم وحسين مروّة ومن القدّامي نقد المعتزلة والآمدّي والجاحظ وغيرهم كثر.

(٩) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي: جابر عصفور، ط ٥، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٥، ص ٩.

(١٠) هوامش على دفتر التنوير، ص ١٧.

مغاليق النصوص التراثية والإفادة منها في واقعنا بما فيه من هموم وآمال وآلام وتحديات، لكنّه يُفرّق «بين من يعود إلى الماضي ليثبت أو يؤكد وضعا متخلفا في الحاضر، وبين من يعود إلى الماضي ليؤصل وضعا جديدا قد يُطوّر الحاضر نفسه، وينفي بعض ما فيه من تخلف، وتأصيل الجديد يعني أن -نقلته علماً- لنعرف أصله الذي جاء منه، وأصولنا التي يمكن أن تتقبله وتدعمه، وبمثل ذلك يُؤصل الجديد، أي يصبح له أصل، ويتحوّل إلى قوّة مؤثرة كلّ التأثير، بعد أن وجدت أصلاً تضرب بجذورها الفتية فيه»^(١١).

٢- لماذا نقرأ التراث؟

لو عقدنا الصلة بين ماهية التراث والغاية من قراءته لانتهينا إلى أن قراءة التراث تمكّننا من التسلّح بقيم التغيير والتطوّر والرقي ومعرفة ذواتنا معرفة دقيقة، والانفتاح على مآثر الآخر ومواطن ضعفه وقوّته، لذلك لا مناص من معرفة حضور الآخر الذي تتعدّد صورته في فكرنا السائد، فمرّة يتشكل في صورة عدوّ مخيف غازٍ وحيناً يمثّل هيمنة اقتصادية لها آثارها الوخيمة، وحيناً آخر نتصوّره تسلطاً ثقافياً وغزواً معرفياً وسياسياً لا سبيل إلى مقاومته، «وهنا يغدو سؤال المستقبل الوجه الآخر من سؤال التغيير في أفق الشعور بالصدمة المتكرّرة التي تتأكد مع كلّ غزو للآخر»^(١٢).

إنّ انفتاح الباحث على التراث يمكّنه من الاطلاع على المعرفة الإنسانيّة في شكلها التراكمي، والوقوف على أنّ مصدرها وحدة الإنسان الذي قد يكون فاعلاً أو مفعولاً «فهي معرفة إنسانيّة تكتسب وحدتها من موضوعها الذي هو مصدرها وغايتها، هذه المعرفة الشاملة تنطوي في وحدتها الكبرى أو وحداتها الصّغرى على المبدأ نفسه، المبدأ الذي يؤكد معاني الوحدة العلائقية»^(١٣). معنى ذلك أنّ التراث مجموعة من الآليات والروابط العلائقية تنشأ من الوصل والفصل لكنّها لا تنفصل عن الإنسان في إدراكه العلائقي، هذا الوعي يجعله يدرس الظواهر بمختلف أشكالها الحياتية وصورها المجتمعية وتجلياتها المختلفة اتّصالاً وانفصالاً، تداخلاً وتفاعلاً، تشابكاً وتلاحماً، تماثلاً واختلافاً، وبناءً على ذلك لا يمكن أن نفهم هذه العلائق داخل التراث بمعزل عن العلوم الإنسانيّة والصحيحة وشتّى المجالات الإبيستمية والمقاربات المنهجية، فالتراث شبيه بحقول «المعرفة الإنسانيّة في تخصصاتها المختلفة؛ دوائر عديدة تكاد تنذ عن الحصر، لكنّها تتداخل عند نقاط بعينها، على نحو يصنع شبكة معرفيّة هائلة من الدوائر المتّصلة التي لا تنفصل واحدة منها عن الأخرى»^(١٤).

إنّ قراءة التراث بتمعّن والنظر فيه بمناهج نقدية حديثة ومعاصرة في اللسانيات وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وتاريخ الأديان

(١٣) آفاق العصر: جابر عصفور، ط ١، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ١٩٩٧، ص ٤٣.
(١٤) المصدّر نفسه، ص ٣١.

(١١) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، ص ٩.

(١٢) نحو ثقافة مغايرة: جابر عصفور، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨، ص ٣٤.

وعلم الإحصاء والفلسفة ونحوها من العلوم يجعلنا نؤمن بحرية الإنسان في الفعل الحضاري والإضافة باعتباره إنسانا بصرف النظر عن كلّ الخصوصيات الأخرى، فهو حرّ في تفكيره وإبداعه ونقده وهذا الأمر يعدّ جزءاً لا يتجزأ من حرية الإنسان الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة «وهي مسؤولية عقليّة ودينيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة وسياسيّة. مسؤولية عقليّة لكلّ من يرى في الابتكار والابتداع لا التقليد والاتباع- سبيلا لوعود المستقبل لا وعيده، ولكلّ من لا يعرف بداية للابتكار أو الابتداع إلاّ بوضع العقل بكلّ مدركاته موضع المساءلة، والمسؤولية العقليّة للحرية، التزاما باحترام العقل الذي يرفض الخرافة، ولا يقبل التقليد»^(١٥).

إنّ من بين ما يروم أن يحققه جابر عصفور في مشروعه النقديّ هو النضج العقليّ والوعي العلميّ والمنهجيّ ولا يمكن أن يتحقق ذلك وفّق رأيه إلاّ بعقل يواجه تيارات التعصّب ومجموعات التطرّف الدينيّ بمختلف فصائلها المتعدّدة وضد «كلّ عمليات الانغلاق الموازية التي حرص هذا التيار على تثبيتها في النفوس، وأخيرا من منطلق الايمان بضرورة التنبيه إلى المخاطر الناجمة عن عمليات القمع التي يمارسها هذا التيار ضدّ حرّية الفكر والإبداع، وما تؤدي إليه هذه المخاطر من تدمير أحلام التقدّم والعودة بالمجتمع كلّه إلى وهاد التخلف»^(١٦).

(١٥) ضدّ التعصّب: جابر عصفور، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠١، ص١٧.

(١٦) المصدّر نفسه، ص٩.

وهكذا نتبيّن ممّا تقدّم أنّ الغاية من قراءة التّراث والنظر فيه ومحاولة الاستفادة منه وتجاوزه باعتباره يمثّل مشروعا مجتمعيّا وحضاريا يُسهم في بناء الإنسان، إلاّ أنّ هذه القراءة يجب أن تكون من زاويتين، زاوية الحضور وزاوية الغياب ووفّق هذه الثنائيّة والجدليّة يرى جابر عصفور أنّ التّراث العربيّ والإسلاميّ يتميّز بحضورين؛ حضور «هناك» في تاريخه الخاص وفي محضنه التأسيسيّ الذي أنتجه، وحضور «هنا» في اللحظة التاريخيّة والمنجز الحضاري الحديث والمعاصر، ممّا يدلّ على أنّ علاقة القارئ بالمقروء تنهض على جدلية الاتصال والانفصال في آن واحد، وتبعاً لذلك فإنّ مهارة قارئ التّراث تتبدّى في اجتهاده في تحويل الانفصال إلى اتّصال ممّا يُضفي إغناء وإضافة وتخصيباً للفكر والفعل الحضاري، فإذا كان القارئ ينتمي إلى عصره والمقروء ينتمي إلى عصر ماض، فإنّ العلاقة بينهما هي علاقة انفصال، غير أنّ هذا الانفصال سرعان ما يتحوّل إلى اتّصال إذا وفّق القارئ في ذلك على غرار سير أغوار المقروء وتوظيف المناهج الحديثة والمعاصرة والإفادة من البُعد القيمي الذي ينطقه النصّ المقروء، وبذلك يتحقّق توازناً بين الذات والموضوع، وبين قارئ التّراث والمتون التّراثيّة والمقاربات الماضوية^(١٧).

إنّ الإقبال على قراءة التّراث وفّق رأي جابر عصفور يكفل بُعدا حضاريا وفلسفيا وتمرينا نقديّا يتمثّل في تبين العلاقة المشكلية بين الأنا

(١٧) قراءة التراث النقدي، ص٧ وما بعدها.

والآخر في مفهومه المطلق، أو ما يعبر عنه بالتراث والحداثة، ويمكن استبدالها بالفكر العربي والفكر الغربي، أو الأصالة والمعاصرة، فقد دعا جابر عصفور إلى تجديد الفكر العربي حتى يتسنى له معرفة الآخر، فيرى أما أن نعيش عصرنا بلحظته ومشكلاته، وأما أن نرفضه ونوصد دونه الأبواب لنعيش وفق نمط مخصوص، ثم يشغل نفسه مجدداً باستيعاب التراث بشكل جديد وتوظيفه في مجال تحرير الفكر الحاضر من سيطرة التبعية للفكر الاستعماري وكل مظاهر الاغتراب والاستلاب، وقتئذ يكون التعامل مع الآخر بنديّة، وفي ضوء هذه الرؤية العلميّة والمنهجية يرى جابر عصفور أنّ غياب الجدل الفاعل والإيجابي مع التراث والآخر المغاير وفقدان الذات العربية بصفة عامّة لفاعليّتها هو ما يجعلها تلجأ إلى أحد الطرفين وهو أمّا الاعتصام والاحتماء بالتراث، وأمّا التقليد والتبعية والاستهلاك للمنجز المعرفي العربي^(١٨).

نخلص من معالجتنا لإشكالية قراءة التراث عند جابر عصفور إلى أنّ مقاربتة القرآنية موصولة بتحويل المعرفة التراثية من معرفة متكسّسة ميتة إلى معرفة حيّة قادرة على إنتاج الحقائق والمعارف والأنشطة المتنوّعة، بمعنى قراءة جديدة تسهم في بناء الإنسان والزمان والمكان، قراءة مُعاصرة تعكس حضوراً للقارئ ووعياً للذات العربية الناظرة في مشاكل اللحظة التاريخية والتحديات الراهنة.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٧.

إنّ وعي القارئ بتراثه إنّما ينطوي على الوعي بالتراث من حيث هو إشكالية مثلما يرى جابر عصفور «كونها إشكالية قائمة في جدل الأنا مع ماضيها وحاضرها ومستقبلها من ناحية، وجدلها مع الآخر الذي يتدخّل في نظرتها إلى الدافعية التي تتحرك وراء الوعي بحاضرها وماضيها ومستقبلها من جهة ثانية»^(١٩)، وتبعاً لهذا التصوّر يُحقّق جابر عصفور أطروحة حضارية تنهض على الانتقال من الانكسار إلى الانتصار ومن واقع مأزوم منهزم إلى واقع مُنتصر حيث يترتب على ذلك تحرك الذات العربية القارئة من آلية الدفاع إلى آلية سبر أغوار هذا التراث وإعادة قراءته.

مما لاشكّ فيه أنّ قراءة التراث وفهمه وتفكيكه ونقده وتجاوزه أحياناً يسهم في إغناء الحقل المعرفي والثقافي وتعزيز دور العقل وتقوية الجسور بين الحضارة العربية الإسلامية وبين مختلف مكوناتها وبين الثقافة الكونية، وهذا قد ينخرط في بناء الفعل الحضاري وتحقيق أشكال متقدّمة من حوار الثقافات ينعكس بوضوح على سؤال النقد باعتباره خطاباً معرفياً، وعلى سؤال المنهج بما هو جملة من القواعد والمبادئ التي

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٠) الملاحظ في هذا السياق أنّ جابر عصفور سعى طيلة مراحل حياته العملية إلى مدّ جسور التواصل مع الآخر والانفتاح على المغاير ثقافياً ودينياً وحضارياً، فقد قضى قرابة خمس عشرة سنة في منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بمصر فكان له الفضل الكبير في تجسير العلاقات بين الثقافتين العربية والعالمية ناهيك عن ترؤسه للمشروع القومي للترجمة الذي يرسخ تثقافاً وبعداً إنسانياً.

تهتم بالأفكار والمصطلحات، وقد لا يتحقق كل هذا حسب جابر عصفور إلا إذا كان المنطلق أفقا نقدياً وجدلاً عقلياً يستند فيه الباحث إلى هوية النصوص التراثية والنظر في فجواتها وفراغاتها وأبعادها الغائبة والوقوف على المسكوت عنه فيها، ويواكب حركة النقد واتجاهاته النظرية والمنهجية والأبيستيمية.

إن غاية جابر عصفور من هذا الحفر في التراث هو انشغاله الدائم بقضايا التخلف والتقدم، لذلك اعتنى بثقافة التنوير والدعوة إلى العقلانية وترسيخ المناهج النقدية والتنويرية، لذلك يرى أن تراثنا العربي لا تزال تهيمن عليه « قيم التخلف لا التقدم، والدليل على ذلك أن الحضارة العربية الإسلامية لم تزدهر إلا بمدى ما حققت من حرية فكر وابتداع، وأنها لم تعرف طريقها إلى الانحدار إلا عندما استبدلت التقليد بالاجتهاد، والتعصب بالتسامح، والتسلط والظلم بالمساواة والعدل، فكانت النتيجة ازدياد معدلات الانهيار الذي اقترن بسجن المختلفين فكرياً وسياسياً وتفكيراً دينياً، والتصاعد المطرد في اضطهادهم وتعذيبهم، وإعدام البعض منهم، فنسينا أقوال ابن رشد العظيم عن الفصل بين العلم والملة، أو استمرار محاولات الاتصال بين العلم والدين، فأصبح الخطاب الديني السائد مُعاديًا للعلم في زمننا»^(٢١).

هكذا نتبين مما تقدم أن الرجل تجاوز النظرة النمطية المتكسرة والمواقف السلفية المازوية

(٢١) نقد ثقافة التخلف: جابر عصفور، ط ١، دار الشروق، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨، ص ٥.

التقليدية للتراث وقضاياها، فهو يدرسه بعين الناقد الحصيف والناظر في المستقبل لا بعين الاجترار والتكرار، بناءً على أن التراث لا يمكن أن يكون كتلة ميتة من الأحداث والمواقف والمرجعيات والمفاهيم، بل يتعامل معه بناءً على أنه وعي بالحاضر وإدراك للوجود الآني^(٢٢).

إن الانفتاح على قراءة التراث يمكننا من ربط جملة من العلائق بمضامينه وأبعاده وقيمه لأننا « لن نستطيع أن نفصل موقفنا من الحاضر عن موقفنا من الماضي، لسبب بسيط مؤداه أن التراث موجود بنا وفينا في الوقت نفسه [...] رغم البعد التاريخي يؤثر فينا بالقدر الذي نؤثر فيه، كأنه يُشكّلنا بقدر ما نُشكّله»^(٢٣).

لا يخلو كلام جابر عصفور من قيمة إبيستيمية ومقاربة منهجية وقرائية تتعلق بالتراث نظراً إلى ما شاب الوعي الجمعي من فهم تراثي غالباً ما يُطلق عليه صفة السلفي، لأن كل قراءة معاصرة ومغايرة ونقدية تخالف النمطي والأنموذج والسائد تُعدّ كفرًا وبدعة وخرقًا للدين، ذلك أن الهالة القدسية التي كانت للقرآن بناءً على أنه نصّ مفارق انتقلت إلى التراث البشري بما فيها

(٢٢) ولعل هذا التمثي المنهجي والتصوير الإبيستيمي من الأسباب الرئيسة التي دفعت الناقد والمفكر جابر عصفور إلى العودة إلى عيون التراث والانكباب على دراسة ما فيه من مضامين وقضايا وأبعاد وقيم معرفية وعلمية وإنسانية، فنقّب في الشعر على نحو «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر، وكتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لحازم القرطاجني، ونحو ذلك من المآثر.

(٢٣) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، ص ١١.

النصوص الحواف «وعندما انسرب المعنى الديني إلى التُّراث في هذه النظرة [...] وقع الخلط بين التُّراث والدين، فلم يتوقَّف أحدٌ للفصل بين التُّراث البَشَرِيّ والدين غير البَشَرِيّ، ليؤكد أنّ التُّراث كلّهُ كما هو بالفعل جُهد بَشَرِيّ قابل للتقييم المُحايد، والحُكم بالإصابة والخطأ، ما ظلَّ فعلاً من أفعال الاجتهاد البَشَرِيّ في التاريخ»^(٢٤).

إنَّ التُّراث والنصَّ المؤسَّس له بصفة خاصَّة عند جابر عصفور يُعدُّ «فسيفساء من الاقتباسات والعلامات والثغرات والإشارات التي تضعه في موضعه الذي يحدِّد هويته الخلافيَّة، حتى في أحوال تشابهه مع غيره داخل الشبكة الهائلة التي لا حدودَ لها من النصوص الإبداعية وغير الإبداعية»^(٢٥)، ممَّا يفيد أنّ القراءة النقدية وحدها هي التي تحررنا من قيد التُّراث، فالخوف كلّ الخوف أن يحتوي التُّراث ويصيرنا خدماً له، يَسْكُننا ولا نسكنه، لذلك دعا جابر عصفور إلى إعادة «كتابة تاريخنا الثقافيِّ بصورة عقلانيَّة وبروح نقدية، لأنَّه من خلال ممارسة العقلانيَّة النقدية في تراثنا نكتسب عقلانيَّة أصيلة وجديدة. وبذلك نبقى على حضوره المُغاير لحضورنا، ونحفظ لأنفسنا كياننا المستقلَّ عن وجوده، فننتحرر من أوهامنا عنه، ونتحرر من خوفٍ أن يُحكِّم قيده على رقابنا ويكونُ ذلك على أساس القراءة النقدية الواعية بتحديات العصر التي

يواجهها الفكر العَرَبِيّ»^(٢٦).

يسعى جابر عصفور من الدعوة إلى قراءة التُّراث إلى تحقيق شيء من العلميَّة والانضباط المنهجيِّ والنسبيَّة في إطلاق الأحكام، والموضوعية في دراسة العلوم الإنسانيَّة، لأنَّ البعض يربط هذه الشروط بالعلوم الطبيعية، ولا حظَّ للعلوم الإنسانيَّة من هذه الضوابط باعتبارها علومًا مطلقة وغير صحيحة، والحقُّ أنّ جابر عصفور يرى أنّه لا فرق بين العلوم الصحيحة والعلوم الإنسانيَّة في هذه المقاييس العلميَّة والشروط النقدية، فالنقد للتُّراث «يجب أن يكونَ علمًا كالعلوم الإنسانيَّة، يسعى مثلها وفي إطار استقلاله الخاصِّ، وليس في إطار محاكاة غيره من العلوم الطبيعية أو الإنسانيَّة»^(٢٧).

وتبعًا لذلك كان الفضل لجابر عصفور في الوصول إلى صيغة الموضوعية النسبية في البحث، لا سيما في المقاربات الموصولة بالعلوم الإنسانيَّة حيث صرَّح بذلك قائلاً «فلم يكن هذا الفهم لموضوعية البحث في العلوم الإنسانيَّة عن غير غلُو في ادعاء الحيادة المطلقة أو التطابق المنهجيِّ مع العلوم الطبيعية»^(٢٨).

يروم هذا الحضور المنهجيِّ لجابر عصفور أن يبني أطروحة نقدية تنهض على صيغة توفيقية وتفاعل إيجابي بين الذاتية والموضوعية وهو ما

(٢٦) هوامش على دفتر التنوير، ص ٧٥ وص ٧٦.

(٢٧) المرايا المتجاوزة: جابر عصفور، ط ١، دار قُباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٨، ص ٣١٨.
(٢٨) نظريات معاصرة: جابر عصفور، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٨، ص ١٠٢.

(٢٤) هوامش على دفتر التنوير، ص ١٨٤.

(٢٥) ذاكرة للشعر: جابر عصفور، ط ١، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥، ص ٣٤.

سيوصل النقد التّراثي إلى آفاقه الرائدة ويحفظ له استقلاله في المنهج والرؤية والتحليل والتفكيك والتفسير والتأويل والتجاوز، غير أنّ التأويل الذي يقصده الناقد جابر عصفور هو منهج ومقاربة إبستمومية ونظرية «تقوم على الجدال بين النصّ والقارئ في تفاعل حوارى، لا تسيطر فيه الذات بما هي ذات مدركة، أو العمل بعده موضوعا مدركا. وهذا ما يفسر ارتباط النسبية بصفة الموضوعية، ذلك أنّ عملية النقد موضوعية وذاتية في آن، فموضوعيتها ترجع إلى أنّ العمل مستقل عن الناقد الذي يحلله ويفسره، وذاتيتها تعود إلى تدخله في تكييف الموضوع المدرك»^(٢٩).

إنّ دراستنا لمواقف جابر عصفور من التّراث والوقوف على دعوته الملحة إلى الرجوع إليه وتقليب مضامينه ونقد موضوعاته يُفضي بنا إلى جملة من المستخلصات أبرزها بيان أهمية قراءة التّراث والغاية من قراءته وقد تجلّى ذلك في ما ذهب إليه الناقد جابر عصفور في قوله «منذ سنوات طويلة، وأنا منشغل بعملية قراءة التّراث النقدي بوصفها عملية ملحة لها أهميتها في ذاتها، وبوصفها عملية صغرى مرتبطة بعملية كبرى هي قراءة التّراث بوجه عامّ. وبقدر ما كنت أدرك أنّ الإلحاح على قراءة التّراث هو الوجه الآخر من الإلحاح على قراءة الواقع أو الحاضر، كنت أزداد اقتناعاً أنّه لا توجد قراءة بريئة محايدة للتّراث، ذلك لأننا عندما نقرأ التّراث ننتقل من مواقف فكرية محدّدة لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التّراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة، بالمعنى الذي يتحدّد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننتقل منها»^(٣٠).

(٢٩) المرايا المتجاورة، ص ٣٢٦.

(٣٠) قراءة التراث النقدي، ص ٩.

انطلاقاً من هذا الشاهد يمكن أن نستخلص أنّ قراءة التّراث قد تقودنا إلى قراءة الواقع الذي ننطلق منه ومقارنته بالماضي وما يمكن أن ينشده المرء في المستقبل، ولعلّ الحاضر بإشكالاته يفرض تلك العودة إلى البحث عن حلّ لقضايا أشكّلت على الراهن، غير أنّ هذا لا يستقيم في ظلّ الاتّباع والخضوع والتقليد المميت والقراءة المتكسّسة والركون إلى المناهج النقلية والوصفية والمواقف الانطباعية والمزاجية، والأسلم هو التطرق إلى الرأي النقيض والمخالف والاعتماد على العقل والمناهج الحديثة في القراءة والنقد الحنيف والعلمي، ولعلّ هذا ما يفسر قيمة الفعل القرائي عند جابر عصفور، فالقارئ كائن تاريخي يتأثر ويؤثر، لا يمكنه أن يتحكّم في التاريخ، فهو محكوم بالمحضن الاجتماعيّ والمحيط النفسيّ والمشهد السياسيّ والطقوس الدينية والمرجعيات الثقافية التي ينتمي إليها، إنّ إيمان جابر عصفور بهذا جعله يردّ المأزق التّراثي ليس إلى «الماضي وحده، أو التّراث في ذاته، وإنّما هو خلاف مصدره إلى جانب الماضي أو التّراث، الحاضر القارئ، بشروطه الخاصّة في إنتاج المعرفة وعلاقات أنساقها ومستويات هذا الخطاب، ذلك أنّ العائد إلى التّراث لا يمكن أن يتنصّل من اللحظة التاريخية التي ينتمي إليها، وشروطها المعرفية التي بها يتمّ إنتاج معرفة جديدة بالتّراث»^(٣١).

إنّ تفسير هذا الإلحاح من لدن جابر عصفور على الاهتمام بالتّراث وقراءته والرجوع إليه

(٣١) قراءة التراث النقدي، ص ٩.

والاستضاءة بما فيه من مضامين يأخذ في الحُسابان مَرَكِزِيَّتَهُ في بناء الحضارة الإنسانيَّة عند كلِّ الشعوب والأمم، بيد أنَّ هذا التُّراث يجب أن نقرأه في سياقاته ومحضنه والظروف المتعدِّدة التي أنتجته وشكَّلته على نحو معيَّن. فلا يمكن أن يَكُونَ الماضي حلاًّ للحاضر ولا يمكن أن يَكُونَ التُّراث حَدائِةً وتجديداً لأنَّنا بذلك قد نخرجه من سياقاته التي أفرزته وأنساقه المَعْرِفيَّة التي أسهمت في تشكُّله، لأنَّ القارئ المعاصر له تحدياته الثَّقافيَّة والمَعْرِفيَّة والدينيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة المُخالفة لسياقاتِ النصِّ المقروء، ومراعاة هذا التباين يحفظ لكلِّ طرف كيانه ووجوده ولا يكون حبيسا لأيِّ جهةٍ كانت، وهكذا عندما نضع التُّراث «في سياقه التاريخيِّ أو مواضعه التاريخيَّة المُخالفة لموضوعنا، فإنَّنا نُبقي على حضوره المُغاير لحضورنا، ونحفظ لأنفسنا كياننا المُستقلَّ عن وجوده، فنحرِّره من أوهامنا عنه، ونتحرَّر من خوف أن يُحكِّم قيده على رقابنا»^(٣٢).

إنَّ الهدفَ من قراءة التُّراث مساءلته ومراجعتَه والإفادة منه متى أمكنَ ذلك، فالعودةُ إليه قد تخفَّف أحيانا من وطأةِ الراهن وتحديات اللحظة التي يعيشها المواطن العَرَبِيّ الإسلاميِّ، إلاَّ أنَّ هذه العودة لا يُمكنُ أن تَكُونَ مُنغلقة على نفسها، بل يجب أن تَكُونَ منفتحة على النقد والتجاوز وعلى التعايش مع الآخر المختلف، لأنَّ التقوقع على الذات لا يرث إلاَّ التعصُّب والتبعية بمختلف

(٣٢) المصدَّر نَفْسُهُ، ص ٣٤.

أشكالها، لذلك أكَّد جابر عصفور على هذا الرجوع إلى التُّراث مع المحافظة على بعض الخصوصيَّات، وقد لا يستقيم ذلك إلاَّ بتأصيل الوافد بُغية الملاءمة مع واقعنا وتجاوز التحديات التي نعيشها. وهكذا تبدو نظرتَه إلى التُّراث نظرة علميَّة وواقعيَّة ونسبيَّة في الإفادة والتعامل والقراءة لأنَّنا «لن نستطيع أن نفصلَ موقفنا من الحاضر عن موقفنا من الماضي لسبب بسيط مؤداه أن التُّراث موجودٌ بنا وفينا في الوقت نفسه [...] رغم بُعده التاريخيِّ، مازال يؤثِّر فينا بالقدر الذي نوثِّر فيه، كأنَّه يشكِّلنا بقدر ما نشكِّله»^(٣٣).

إنَّ الذي يمكن أن نستخلصه من أطروحة الكاتب والمفكر جابر عصفور أنَّ الإنسان لا يمكن أن يَعيش دون ماضٍ، فهو كائنٌ زمني يتشكَّل من ماضٍ وحاضر ومستقبل، وهذه الكينونة تفضي إلى أن مَن لا حاضرَ له، لا ماضيَ له وهي المقولة التي تنهض عليها فكرة الكاتب.

إنَّ أبرز ما أمكنَ التوصلُ إليه في بعض أفكار جابر عصفور يتمثَّل في أنَّ الرجل ينبه أكثر من مرَّة إلى عدم التسرُّع في إصدار الأحكام المسبقة Préjugés أو ما اصطلح عليه وَفَق قوله «الأنساق القبليَّة، أو المتوسَّطات القرائيَّة»^(٣٤)، هذه الأحكام التي لا تستند إلى مُستندات علميَّة، فالحُكم على التُّراث دون الرجوع إليه أو من غير الوقوف على مضامينه وأبعاده وعناصر قوِّته وضعفه يُعدُّ

(٣٣) مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، ص ٩-١١.

(٣٤) قراءة التراث النقدي، ص ٨٥.

المدرّوس عن باقي الحقول التي تربطها علاقة به، ممّا يدلّ على أنّ الرجل قام بربط مختلف فروع المعرفة التّراثيّة بالحقول والأنساق المعرفيّة والحضارية والمدارس النّقديّة والمقاربات المنهجية التي تنخرط في بناء التّراث، يقول جابر عصفور في هذا السياق «لقد حاولت أن أتعامل مع التّراث النّقديّ والبلاغي على أساس من النظر إلى علاقته المتفاعلة بغيره من العلوم والمعارف التي ساهمت في إثرائه، أو توجيه مساره قضاياه الأساسية المرتبطة بمبحث الصّورة، مثل الفلسفة وعلم الكلام واللغة والتفسير»^(٣٦).

إنّ الغاية من قراءة التّراث هو الوقوف على الأبعاد القيّميّة والجماليّة ومواطن العقلائيّة والتنوير والحداثة، لذلك نادى الكاتب بالفصل بين الدّين والدولة من منطلق حرّية المعتقد بناءً على أنّ السلطة الدينيّة ومؤسساتها كانت من بين الأسباب التي أدّت إلى نكسة الحداثة في العالم العربيّ والإسلاميّ، ولا يمكن أن نتجاوز ذلك ونعانق قيمّ التقدم والمواطنة والعقلائيّة ومبادئ النّقد وعلمنة الدولة إلاّ بحرّية تأويل النّص المقدّس وتعدّد زوايا قراءاته والانتصار للعقل العلميّ الناقد والاستناد إلى المناهج العلميّة الحديثة والمعاصرة والتمرد الدائم على التقاليد والفكر السلفي والطرح الماضوي.

(٣٦) الصّورة الفنّية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٢، ص ١١.

حُكما جائراً، وحين أصرّ جابر عصفور على تلافي هذه الأحكام المُسبقة حرص على الانتباه إليها لأنّها موصولة بأنساق القارئ والمقروء معاً، وهذا سيُفضي إلى ضربٍ من غياب الوعي النّقديّ والتقيّد بالنّمطيّ والسائد والتقليد، لذلك يرى أنّ «الأنساق المعرفيّة التي تتوسّط بين القارئ والمقروء وتحيط بهما هي العنصر الذي لا بدّ أن نلتفت إليه من حيث ما نقوم به من دور حاسم، مزدوج، في حدث القراءة فهو - من ناحية- يكشف عن الفاعلية المتبادلة لكلّ من القارئ والمقروء ويكشف - من ناحية ثانية- عن القواعد الضمنية التي تتحكّم في توجيه حدث القراءة»^(٣٥).

إنّ المقصد من قراءة التّراث حسب رأي الكاتب والناقد جابر عصفور هو أن يتجاوز الباحث القصور الذي يكون قد حدث في المقاربات القرآنيّة التّراثيّة السابقة التي سعت إلى تقديم نصوص الماضي بشكل مشوه ومبتور وضيق وجزئيّ وبمنهج مُنبّت، وهذا ما يفسّر عزلة النّص

(٣٥) المصدّر نفسه، ص ٦٣.

وقد توسّل جابر عصفور بعدد الدراسات التطبيقية للاستدلال على هذه العلاقة بين القارئ والمقروء وعلى بعض الأنساق التي تحفّ بالمنجز على نحو دراسته لابن المعتز، والأمر ذاته حدث في دراسته لنازك الملايكة وما تسرّب من تناصّ وأنساق معرفيّة وصور فنية وشعرية في أشعارها من أبي القاسم الشابي وجبران خليل جبران وعلي محمود طه.

انظر في ذلك: رؤى العالم، عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر: جابر عصفور، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٨، ص ٢٩.

٣- كيف نقرأ التراث؟

اختزل جابر عصفور علاقتنا بالتراث في صورة تمثيلية جميلة هي حكاية السندباد في الرحلة الخامسة مع شيخ البحر الذي خدعه وأطبق على رقبتة برجليه بعد أن أشفق عليه السندباد وحمله على كتفيه وظل هكذا يحمله كرها.

إنَّ إشفاقنا على التراث خوفاً عليه من الضياع والانتماء إليه والاحتماء به، تبريرا لانتكاسات الحاضر وبحثا عن حلول للمستقبل، جعلنا نتعامل مع التراث تعاملا تمجيدا تقديسياً، فهو الأصل والمعين الذي منه ننطلق وإليه نعود، لذلك رأى جابر عصفور أنَّ التراث يشكّل أوّل معوقات التقدّم وجعل الحديث عنه يحتلّ مكان الصدارة، بل يعده معضلة إذ يقول «لم يكن من الغريب أن تبدأ مقالات هذا الكتاب بمعضلة التراث من الزاوية التي تضع التراث في إطاره التاريخي»^(٣٧).

لقد تحوّل التعامل مع التراث إلى أزمة تُعيق تقدم المجتمعات العرّبية وهو لا يقلّ تسلّطا عن علاقة التبعية للآخر، فلئن كان الارتداد على أعقابنا إلى الماضي في شكل عملية تعويضية يجعلنا لا نعي حاضرنا بمختلف سلبياته ومستجداته، فإنّ الارتقاء في أحضان الآخر أيضا يؤدي بنا إلى النتيجة نفسها، فهو يُعمي أبصارنا عن التعامل العقلاني والواعي بخصوصية مجتمعاتنا ومتطلباتها.

لقد صار التعامل مع التراث يشكّل محنة لا منحة بما أنّه جعل الإنسان العرّبي في غيبوبة دائمة عن واقعه وفي حالة التفاتٍ إلى الوراء

(٣٧) هوامش على دفتر التنوير، ص ٩.

مستمرة بدل التطلع إلى المستقبل والانقياد إلى الصيرورة الطبيعية للحياة البشريّة من حيث أنّها فرار دائم نحو الأمام، وقد أرجع جابر عصفور هذا التعامل المحاط بهالة من التمجيد والتقديس إلى تلبّس التراث بالجانب الأيديولوجي وذلك عند حصره في الجانب الدينيّ وههنا ممكن المشكلة، إذ يجري الخلط بين ما هو إنسانيّ وما هو إلهيّ مع إقصاء لبقية مجالات المعرفة وحصر التراث في «مجرد نصوص شارحة للنصّ الدينيّ وحده»^(٣٨).

حدّد جابر عصفور شروط التعامل الواعي مع التراث دون إقصائه إقصاءً كلياً أو جعل أنفسنا منحصرين في دائرته، وأوّل هذه الشروط هي الاقرار ببشريّة هذا التراث باعتباره مخزونا معرفياً أفضى إلى صنع مجموعة بشريّة في فترة زمانية محدّدة، وفي ظروف معيّنة، وبمنظرة مخصوصة «فالتراث ميراث إنسانيّ لجهد بشريّ خلفه الذين أورثونا إيّاه»^(٣٩).

ولمّا كان التراث ميراثا إنسانياً فلا يحقّ لنا أن ننظر إليه من زاوية أحاديّة هي الزاوية الدينيّة، ولمّا كان إنتاجا بشرياً فلا يُعقل أن نُسدل عليه رداء القداسة، بل يجب علينا أن نضعه على محكّ الشك والنقد فنميّز بين الصالح والطالح منه، والخبيث والحسن، والقبيح والجميل.

إنّ هذا التعامل التاريخيّ مع التراث يجعلنا ننظر إليه «بوصفه مجرد ميراث وليس علّة وجود، مخزون ماديّ وشعوريّ وليس إطارا

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٢.

مرجعياً مطلقاً للحكم على الحاضر»^(٤٠)، غير أن هذه النظرة الزمانية لا تعني التخلص من التراث تخلصاً كلياً أو إلقاءه تماماً كإلقاء السندباد للشيوخ، بل يعنى التعامل الندي معه في غير تصاغر الخلف أمام السلف، أو احتقار للحاضر مقابل الماضي.

لقد أكد جابر عصفور على ضرورة التخلي عن النظرة المثالية في التعامل مع التراث واعتباره النموذج الواجب الاحتذاء به والأصل الذي نحتمي به أمام انكسارات الحاضر وخبائته وضبابية المستقبل والإقرار بأنه جهد أفراد وجماعات في لحظة تاريخية ما، وفي فترة مخصوصة، ومن ثمة فهو إرهاب لتجربة اجتماعية مُغايرة لتجربة الحاضر، وعليه فوجوده مُستقل عن وجودنا.

إن مقارنة التراث تنبع من داخل المجتمع لا من خارجه وهي جزء من الحياة الفكرية له وتشكل جزءاً من الحياة اليومية للمجتمع، وهذه المقاربة الواقعية للتراث من شأنها أن تخلصه من النظرة القدسية التي علقت به، وتحزّره من البعد الديني الذي حُصر في دائرته فيغدو التراث «ذاك التجسد الفعلي لهذا اللّم الإنساني المتباين العناصر زماناً ومكاناً، فعلاً وفكراً، علماً وإبداعاً، صنعة وتقنية، الذي يجمع بين الدرّ والعزّ، والصالح والطالح، لأنّه من صنّع إنسان لا عصمة له أو قداسة، سواء في زمانه أو زماننا»^(٤١).

ولا يتسنى لنا التعامل مع التراث بطريقة

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

موضوعية ما لم نتخلص من سلطة النقل والتسلح بمعرفة علمية تُعلي من روح الابتداع والاجتهاد فتهدف إلى التنوير وتكريس العدل الاجتماعي بين فئات المجتمع، لا خدمة مصالح الأقلية المسيطرة الظالمة.

وإنّ أول مظهر من مظاهر هذه المعرفة العقلية التي تسعى إلى تحديث التراث هي إعادة النظر في طريقة التعامل مع النصّ المؤسس وإيجاد علاقة جدلية بين الدين و«علوم الحكمة المعاصرة بكلّ لوازمها»^(٤٢)، على نحو يصل بين «القديم الاعتزالي والجديد الحديث والمعاصر في شبكة من علاقات المُجاورة التي تعمل في خدمة النصّ بمعانيه الخاصة والعامة»^(٤٣).

وبهذا الشكل يمكن تخليص التراث من بُعد الأيديولوجي الذي قطع الصلة بين النصّ وواقعه، وغيب صوت النصّ مقابل الإعلاء من أصوات الموجهين له، وهذا التوجيه الأيديولوجي يجعل الوعي بالنصّ وعياً زائفاً لا وعياً علمياً عقلياً، وهو من جهة ثانية يكرّس نمط الثقافة الجامدة.

إنّ هذا التعامل العقلاني يقرّ بنسبية المعرفة من جهة، ويدرك أنّ تطويرها لا يتمّ إلا بقيامها على نوع من التراكم حيث يضيق به اللاحق على السابق من جهة أخرى، ولا يتسنى ذلك إلا باستخدام أدوات معرفية تتمثل أولاً في استخدام الشكّ الذي يمكّن من وضع معرفة الأوائل على محكّ العقل وتمييز غثها من سمينها والاهتداء إلى

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

ما نَقَصَ منها.

وثاني هذه الشروط هو الاهتداء بالمناهج الحديثة في قراءة النصّ الدينيّ، لأنّه نصّ جامعٌ لجملة من الأبعاد ولا يتسنّى فهمه إلا إذا تسلّح القارئ المعاصر بعلوم البلاغة والنحو والبنويّة والأسلوبية والسيميوطيقا والهرمينوطيقا ونحوها من علوم الإناسة.

إنّ تفسيرات النصّ في ضوء هذه القراءات المعاصرة من شأنها أن تُضفي بُعداً اجتماعياً عليه وتصله بالواقع «وتجعل من اختلاف التأويل نتيجة للشقاق والتعدّد الأيديولوجي وليس سبباً له»^(٤٤)، على أنّ اختلاف التأويل وقيامه على منطق تراتبّي يظلّ وثيق الصلة بوظيفته الاجتماعيّة ورعاية مصالح المجموعة، أي مصالح الأغلبية لا مصالح الأقلية الضيقة.

خاتمة

لقد آل بنا بحثنا في «آليات قراءة التراث، جابر عصفور أنموذجاً» إلى جملة من النتائج منها:

إنّ التراث فضاءٌ معرفيٌّ وعلميٌّ وإنسانيٌّ، وهذا الرأي شكّل حجر الزاوية في المقاربة التراثية عند الباحث جابر عصفور، لأنّه ينطلق من أنّ التراث شكل من أشكال إغناء الحقل الثقافيّ وإسهام في الفعل الحضاريّ، وإقراراً بأن الإنسان هو الصانع الأوّل له، ممّا يُحيل على بشريّة هذا التراث الذي ينخرط في تمتمين الجسور وتقويتها بين مختلف الثقافات والكيانات البشريّة، وتحقيق أشكالٍ متقدّمة من حوار الثقافات والحضارات.

إنّ قراءة التراث تُفضي إلى تجديد سؤال الثقافة والفكر ومراجعة مسائلٍ قيميةٍ وتأسيسيةٍ من قبيل العدل والحرية والتسامح والمواطنة والمقدس والهوية، ودراسة مشاكلنا وقضايانا بُغية تجاوز السائد والنمطي والأنموذج بروية ثقافيةٍ وحضارية ترسخ البعد الإنسانيّ للثقافات وتهدف إلى تجذير قيم الحداثة والعقلانية والتنوير والنقد البناء ورفع القداسة عن النصوص التراثية.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٥٠.

مصادر البحث^(٤٥)

عصفور (جابر)

- رؤى العالم، عن تأسيس الحداثة العربيّة في الشعر، ط١، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٨.
- نحو ثقافة مغايرة، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨.
- نقد ثقافة التخلّف، ط١، دار الشروق، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨.
- ذاكرة للشعر، د.ط، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥.
- ضدّ التعصّب، ط١، المركز الثقافي العربيّ بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠١.
- المرايا المتجاورة، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٨.
- نظريات معاصرة، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٨.
- آفاق العصر، ط١، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ١٩٩٧.
- مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقديّ، ط٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٥.
- هوامش على دفتر التنوير، ط١، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤.
- الصورة الفنيّة في التراث النقديّ والبلاغي عند العرب، ط٣، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٢.
- قراءة التراث النقديّ، ط١، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، ١٩٩١.

(٤٥) رتّبنا قائمة مصادر البحث وفق تاريخ صدورها.